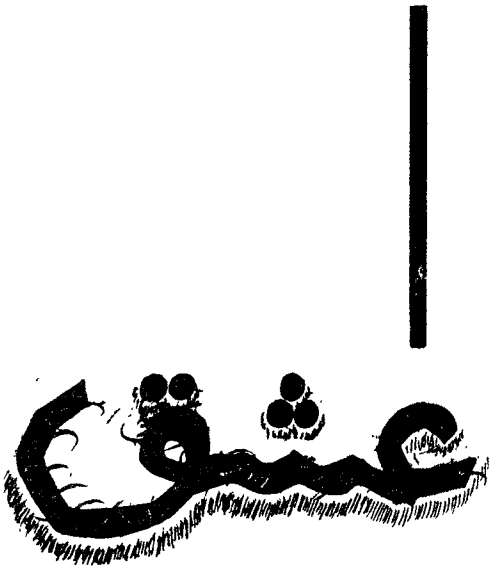

بقلم
ليانك بدر

سحب الكرسي المواجه وجلس عليه بحركة مباغتة عنيفة وهو يقول :

ـ تنتظرينه ، حبيبك ، أليس كذلك ؟

ترددت ووقف الجواب مشرئبا في حلقي ما بين المنتصف والبداية . صديق بعيد يشاركنا المقهى الذي نتردد عليه كل مساء . عينان بارزتان الى الامام وجفون متنفخة بفعل السهر المستمر والشرب الدائم . طفت قرقعة الصحون والآنية في الغرفة المجاورة على صوت اصطكاك الملاعق وهي تدور في الفناجين بحركات رتيبه . وفكرت : شيء غريب ان يحاول التحدث معي على انفراد .

(اكون وحدي حينما تنغرس ابر الماء على بشرتي العارية ، تجردني من غطاء الجلد الرقيق فأصبح رغما عني أقحوانة شاردة في الحقول الماضية . تسبح الاسماك في الاكواريوم المقابل ، تسبح وتسبح ولا تكف عن الحركة . الاسماك لونها شفاف ، رمادي ، أبيض أصفر ، أحمر . ولكن الاوكسجين الصناعي يعينها على التنفس والحركة . أرتدي بزة الغواصين . أرتدي الوانك واخلع نفسي . اصل الى قعر البركة فأصاب بالغثيان والضعف والجفاف . أجد الحصى صغيرة ، ناشفة تتمرغ بالرمال الصفراء . أنزع انبوبة الاوكسجين . هكذا دفعة واحدة تغزوني مشاعر الموت ، ويسيل الاوكسجين الشفاف المنعش على افريز المياه الزرقاء المنخفضة . أفتح حدقتي على سعتهما ولا أموت)

وقال دون ان ينتظر جوابي : أتدرين أني أرقبكما دوما ، من موقع المتعاطف طبعا .

لم أدر ماذا أفعل ، انه يخوض حديثا حميما لم أتهيأ له سابقا .

(ذهبنا الى تلك الخيمة تحمل عواميدها الخشبية صور الفدائيين ونعوتهم . سألني مازن قبل ان نذهب : احرصي على ان يكون لباسك بسيطا ، فأنت تعرفين تماما من سيكون هناك .

وجدتهم على المقاعد القشية الصغيرة ، جالسين يتحدثون وبايديهم لفافات التبغ المحترقة حتى نهاياتها . بدأ يسرد محاضرته . القومية ، الديالكتيك ، الاممية . نظرت الى جواربه . صنع وطني كان يخبرني ، صناعة وطنية . أنا لا البس غيرها . نظرت الى حذائه ، خانته الذاكرة يوما فخبرني انه من انجلترا . ورفع عينيه اللتين تحتميان بنظارات سوداء وجال ببصره على الثياب الداكنة المرقطة ، وقال : الكل يبدأ هكذا ، من التمرد الى الثورة .

سألته : أو من الثورة الى التمرد ؟

كان عتبا خفيفا يترجرج في صوته حينما قال : تخلطين في المفاهيم . غير جدير بالفلسفة الحديثة ان تقلب على رأسها مرتين .

الفلسفة الحديثة ! . وماذا تفعل الفلسفة الحديثة ايها الصديق ، اذا كانت تأكل الفول بالزيت والسلطة بالليمون والقش بالسنابل ، وتركض على الطريق بين الطلاب والمحاضرات دون ان تملك وقتا لاصلاح جملها الحافلة بالاخطاء النحوية واللغوية ؟) .

امتدت يدي الى حافة المائدة تنفض عنهـا الرماد المتساقط من سيجارتي ، وتابع :

ـ البارحة عندما أتيت كان ينتظرك بلهفة ، تأخرت فوفرت عليه حرج الاعتذار من مجموعتنا ، وقلت له : قم الى حبيبتك، في الحقيقة يعجبني هذا النوع من الحب.

(كـان المصباح الفوسفوري ذا وهـج قوي أعشى عيني ، لماذا تحدقين اليه هكذا ؟ قال مازن. أحبك وأنت مغمضة العينين ، ولكن عينيك مفتوحتان بأقـوى ممـا أحتمل . وعيناك أنت أيضا . مسافة لا نجتازها تنحدر في المدن المهزومة بين الحدقـات المفتوحـة والعيـون المغمضة . العالم المائي هو العالم المائـي يطـوف صوب جدران العالم مرة اخرى . فيمحوها ويرسب طينا علـى ساحاتها المنبسطة . قلت للطبيبة بجانبي : نقـاوم كـل شيء حينما نكون في ارادة الحياة . التفجر ، الانزلاق ، المياه الصفراء والزرقاء والخضراء ... ثـم الحب فـي النصف الآخر . استرسلنا في جدال طويل حول غـزو الامراض ومقاومـة الانسان . قلـت لنفسي : بلهـاء ، الناس يسبحون وانا أسدل النقـاش علـى جسدي ولا أعرف الوصول الى الميـاه العميقـة الخضراء . سألنـي مازن : ولماذا يتغير صوتك هكذا ؟.)

استمر الصديق الغريب في حديثه متقطعـا : ـ ولكني ... تذكرت انك تكتبين ... واننا لم نر شيئـا من انتاجك يخرج الى النور .

لماذا يحدثني مثل مهندسي الاضاءة فـي المسارح المكشوفة ؟

وبحدة ومطالبة سألني : ولماذا لا تكتبين ؟

الاجابات السريعة تمرق من رؤوس الحروف الـى أطراف الشفاه : ـ الظروف ، على الارجح .

انبعجت تقاطيع وجهه وتجمـع الاستيـاء فـي خطوطها اكثر صلابة وصرامة :

ـ في هذه السن وتتحدثين عن الظروف ؟ . فـي سنك فعلت أشياء كثيرة وآمنت بادخال الجمل في ثقب الابرة . هل تذكرين كتابي عن « التحـدي المعـاصر » . ولكن الكهولة ، والشعيرات البيض ونخز الاسنان يفعل أشياء كثيرة . والهزيمة ثقبت روحي كما لا يطيقه بشر . هي شرارة التمرد الصاخبة اذا . تحكمك الظروف وانت تلعبين بالعالم بعشوائية دون ان تهتمي بوضعه في المرمى المناسب . اني لم أكتب منذ زمن طويل . فقـد جاوزت السن التي تشعل النار في الهشيم اليابس . زوجتي ، امرأة متدينة تهتم بشؤون الاولاد والبيت وتكفيني مؤونة المتابعة والعذاب . كفت عـن الضيق مـن ادمانـي ، وأصبحت تدعو الله بينها وبيـن نفسهـا طالبـة اليسر وحسن المصير . ولكن لماذا تراني أحدثك بهذا ؟ صديقك صديقي وهو يعرف هذا كله . ها هو قد أتى وسأترككما معـا ...

وضع مازن كفه على المنضدة وتناول علبة السجائر أنزلها من جديد دون أن يسحب واحدة منها . نظر الـي بحنق قائلا : ـ وصلني انك خرجت معه ؟

ـ ولماذا لا أخرج معه ؟ انه صديقي هو الآخر .

ـ هذا الراسبوتين المجنون يضللك محاولا اغراءك. وانت تسعين الى الشبكة كطائر اعمى فقد وعيه .

(أنت تلبس الاخضر ، وأنا ارتدي أيامك الزرقاء . المياه لا تخيفني .... كان الجنون لذة لاذعة تنسدل على مفارق المياه ودروب الموجـات الخفيفـة . أصل الـى منتصف البركة ، أليست الحياة انصاف حلول دائمـة ؟ تجيبني الطبيبة : لا ليس دائما . واتابع سباحتـي مـن السطح وحتـى منتصف الذكريـات . مـاذا تعطينـا الذكريات؟ . بنادق وحصاد هشيم ورومانتيكية الشعراء الذين ذابوا بين القمر النحاسي والشمس الصدئة . ماذا يعطينا الحب ؟ . لوعة الخلق ودهشة العذاب واللـذة . والعذاب هو أن لا أستطيع الوصول الا لمنتصف البركة. واللـذة هي أن أنزع رؤوسا كثيرة تنبت فـي دماغي وتتحدث معي جميعها بصوت واحد ، ونبرة واحدة . لا .

ضربتني الام على يدي ، هذا ليس من شأنك ايتها العفريتة ، لا يجب ان تمسكي كل شيء وان تعرفي كـل شيء) .

وقال مازن : منذ متى لم أرك ؟ . أنا رجل عصري لا يقمع حرية الآخرين في التصرف بحياتهم ورغباتهـم . ولكن الفلسفة الثورية غير جديرة بك بأكثر مما ترتديـن رداء أحمر ثم تخلعينه . افعلي ما تشائيـن ، ولكنـي لا اقبل التنازل عن اوقاتنا المشتركة . رايتك تجلسين معه على الحشيش الاخضر دون ان تهتمي بموعدك معـي . لا تعودي الى الهزء بي مرة اخرى .

... (من منا يهزأ بالآخر ؟ . تحتضنني بين اكوام الكتب المتراصة وتصفني بالصبيانية حين أتجول فـي الساحة الواسعة . طلب منا استاذ الكيمياء ان نفكر بكل شيء تفكيرا علميا . المثال واضح : عليكم ان تستذكروا معادلة التشميـل الكلوروفيلـي كلمـا رأيتـم الاعشاب الخضراء . هربت من المختبر، وتركت الضفدعة المسلوخة ترقد دون الم تحت الدبابيس والمخدر ، ونفضت معادلة التمثيل الكلوروفيلي من ذهني ، وذهبت اليهـم ، هـو يريدني أن أتعرف على العالم ولا يريدني أن أتعرف اليهم) .

في الصباح كنت اوزع منشوراتهم ، وفي الليـل كنت وحدي . التفاصيل تقترب مني، تخيفني وترعبني، وهذه الظلمة تلتفّ حولي كالقبر . (قلت للطبيبة : أحب اليوغا وغزو العالم ، ولكن العقـول الضيقـة لا تسمـح بممارستهما معا . انتابني ضيـق شرس فـي جـذور الشرايين الدقيقة ، وتصاغر قلبي فأصبح سمكة صغيرة بلهاء تموت على صخور القعر اللولبيـة . ولكـن الميـاه

واسعة وعميقة وتحتضن العذابات المتوسعة في الاحداق السوداء والخضراء والرمادية والكاذبة أيضا مع بعض الصدق . أسكب الاملاح الرصاصية الذائبة على جسدي فلا يذوب . واقنع نفسي انهم ما زالوا هناك ، وان بامكاني ان أصل اليهم وحدي . وربما استطعت ان أشاركهم ومعي دفتري وقلمي دون ان يحتلني كابوس الوحشة) . قال حكماء الماضي بدل ان تلعن الظلام حاول ان تشعل شمعة صغيرة . امتدت يدي تفتش عن عود ثقاب ، ولكنها ارتدت خاوية حينما لم تجد في أعماقي سوى اساطير الف ليلة وليلة وروايات العجائز الطازجة . قال الرجل الغريب : أنت منذ اليوم . وينز العشق عصفورا مبتذلا من عصافير الشعراء الكثيرة . وتداعى الحب على ابواب المدن المنهارة والازقة المكسورة . لماذا لا ؟ ولماذا نعم ؟ ولكن انصاف الحلول هي الصخرة ، وهي منتصف البداية ، (ولكن التراب ، ولكن الماء ، ولكن الحب ، ولكن المنتصف . البدايات الخائفة ، النهايات المختنقة عشقا ودمارا وحرقة . أجمع مياه البركة بقبضتي واسكبها على رأسي . ينسدل الشلال وابتلع المياه جميعها ، تخترقني من الجذور ، من المنتصف والامام والخلف ، أشرب كل الاسماك الصغيرة الهائمة في الاكواريوم . ثم ابحث عن بصة نار في أحداق الاسماك المختنقة المتجمدة ، وانزع عيونها ابني منها زاوية ، وفي اضلاعها الكثيرة اختبيء . ولكني ما زلت في المنتصف ... أحمل البركة مرة اخرى وامزقها بكفي ، انثرها ورقات وعيونا أخرى جديدة على الطرقات ، أدفعها بكل قوتي ، فلا تتحرك .. ولا تتزحزح . واكتشف انني اعوم في المنتصف ، وان يدي ما زالتا تحركان المياه بحركات رتيبة). قال اني حبيبته، وذاب غطاء السمكة وأصبح ما عداها سيالا لاهبا ينحدر من جسد كوكب ذهبي . كعراف هندي قرأ خطوط أفكاري وهي تتكسر حول الكرة البلورية ، وقال اني حبيبته . وانا بدوري قلت لنفسي اني ما عدت طفلة غريرة تستهويها أكياس الحلوى والمكعبات . وبنزق شديد اخبرني : أتدرين ما تعنيه ابنة الثامنة عشرة لرجل الاربعين ؟ .وباصرار وحدة أجبته : تماما كالذي يعنيه رجل الاربعين لابنة الثامنة عشرة .

الاربعون سن مناسبة للملل ، والثامنة عشرة سن ملائمة للتحدي . ننسكب على الصخر ويتمطى السحر في ثنايا الفرقة الدافئة التي ينيرها مصباح ساطع . ويخبرني بخفوت وشرود ان الحب ملح الارض، فأعارضه بطبعي العنيد وأجيبه ان الارض هي ملح الحب . فتش في دفاتره القديمة عن قصائد حب شللي ولورد بايرون، وحاولت ان اكتب شيئا فلم استطع ، فذهبت الى الاسواق أفتش عن صبغات الشعر الجديدة هاربة من التوق ولحظات الاسئلة الكثيفة . قلت لنفسي : وهل تغزين العالم بثرثراتك معهم في المقاهي؟ . تتمدد معا على التراب ، ويرتفع الزهو حانيا في قبلاتنا ، وينبت على جسمي حقل بنفسج شاسع . وفي اليوم التالي يدعوني لاقتسام فاتورة المقهى ، ثم يعطيني مسودات طويلة كي انسخها ، ويؤنبني حين أتأخر عن تسليمها في الموعد المحدد . ولكنه يعود ليخبرني : أتدرين لماذا أحبك؟ أنت بيجماليون التي صنعتها يداي . في البداية ، بيجماليون ، وفهمناها . ولكن في المنتصف ... حريتك وحياتك لك وحدك ، ثم يغضب حين أتخلف عن مواعيده . مناشير جديدة وكلمات جديدة أحس بعجزي عن قراءتها من المنتصف . (هل تنمو الحشائش في قعر المياه الزرقاء التي ترقد رمال القعر الصفراء على نهاياتها ؟ ...)

في الليل ، اقتربت التفاصيل مني واصبحت تخيفني مثل غول يكشر عن انيابه . وكان علي ان اقتنص صورة واحدة تمنع الظلام من ان ينهش جسدي، ويهبط علي بثقله الخانق . كانت الحبوب المسكنة ، وقد أصبحت عادية الى حد الابتذال ، قربي : علبة واحدة سوف تكفي . أنت ما عدت طفلة غريرة تحب أكياس الحلوى والمكعبات . التفجر ثم الانزلاق ، ثم المياه الصفراء والزرقاء والخضراء . فاجأتني أمي وانا ابتلع نصفها الباقي . قلت لها هاذية وانا اشرق بدموعي : يجب ان أعيش . فقد احضرت دفترا جديدا وضعته في حقيبتي .

لم تسمعني فقد كانت منشغلة بالاتصال بالطبيب ، والبحث عن كتاب الاسعافات الاولية . هل يحمل كتاب الاسعاف الاولي بين دفتيه فلسفة حديثة وبيجماليون هاربة من عملية التمثيل الكلوروفيلي ؟ . رميت بجسدي الثقيل عن السرير ، وصرخت بها ان تكف عن البحث عن أعذار ملائمة تتستر بها على الطبيب والعائلة . كانت انبوبة الاوكسجين ترقد في القعر مثل جذع شجرة جاف ، وكنت أصارع الاسماك على افريز المياه الزرقاء المنخفضة ، وكنت أنشج وانا أواصل الزحف الى حقيبتي . اسحب الدفتر الابيض منها ، ثم امسكه بكلتا يدي ، وامزقه بحقد واجف ، بينما يتصاعد بكاء امي ونداءاتها للملائكة الذين تعرفهم فردا فردا . وبين لهاثها وهرولتها من مكان لآخر كانت تصرخ بي : ايتها الحقيرة لماذا فعلت بنفسك هكذا ؟ .

وكنت اواصل تقطيع الصفحات الفارغة بشراسة وعنف ، وانا انزلق صوب ذكرى ساعديه وهما تحيطان جسمي وتعانقانه بامتنان وعشق . وحين كنت ابصق ما في امعائي على حوض التواليت النظيف اللامع ، كنت أستأنف لعناتي على معادلات التمثيل الكلوروفيلي واسماك القعر المتلالئة ، وكنت استذكر ذلك الرجل الذي يملك عينين بارزتين الى الامام ، ويثني على زوجته الصامتة المتدينة .

ليانة بدر